الحاج الفيتوري عمر السويحلي

من رفاق الشيخ الطاهر أحمد الزاوي

د / جمعة محمود الزريقي

المستشار بالمحكمة العليا

وأستاذ متعاون مع الجامعات الليبية

تمهيد

أصبح الشيخ الطاهر أحمد الزاوي علما كبيرا من أعلام الإسلام ولا أخالني في حاجة إلى إيراد ترجمته في هذه الورقة ، فقد قمت بها في دراستي لفتاواه التي تصدرت الطبعة الأخيرة من كتابه مجموعة فتاوى ، والتي نشرتها مكتبة دار الهدى للنشر والتوزيع بمدينة طبرق سنة 2008 م ، والشيخ بما كتب عنه في العديد من المصادر داخل ليبيا وخارجها ، صار معروفا لكل باحث في ليبيا وغيرها ، وهذا فضل من الله لهذا العالم الجليل والمجاهد الكبير، وأردت في هذه الورقة الحديث عن أحد المجاهدين من رفقائه ، فقد كانا رفيقين في الجهاد داخل ليبيا وخارجها ، وعاشا حياتهما صديقين حميمين إلى أن انتقلا إلى بارئهما ، فعليهما الرحمة ، سائلا الله تعالى أن يسكنهما فسيح جناته .

كانا قريبين في العمر ، فالشيخ الطاهر الزاوي من مواليد الحرشة بالزاوية سنة 1890 م ، أما الحاج الفيتوري السويحلي فهو من مواليد قرية يدر بمصراتة سنة 1900 م ، ولم أستطع تحديد تاريخ أول لقاء لهما ، ولكن القدر المتيقن أنهما التقيا في نفد ، وهو موقع اتخذه المجاهدون الطرابلسيون سنة 1923 م مركزا لمقاومتهم (1) كان انتقال المجاهدين إلى هذا المكان يوم 26 فبراير من ذات السنة ، وتم ذلك عقب احتلال مصراتة من قبل القوات الإيطالية ، فانتقلت حكومة مصراتة إليه كما انتقل كثير من المجاهدين الآخرين ، وبدؤوا في إدارة شؤون الحرب وترتيب العلاقات بين القبائل الليبية من أجل تنظيم المقاومة ، وكان على رأس اهتماماتهم المصالحة الوطنية بين القبائل المتنازعة ، وتم تشكيل عدة وفود من بينهم لهذا الغرض ، وكان الشيخ الطاهر الزاوي من أعضاء هذه الوفود التي ساهمت في هذه المصالحة (2) .

ذكر الشيخ الطاهر الزاوي كثيرا من الأحداث التي قام بها المجاهدون الليبيون في هذه المنطقة ، والحروب التي خاضوها بما في ذلك معركة المشرك التي استشهد فيها المجاهد محمد سعدون السويحلي ، وما لاقوه من صعاب أثناء إقامتهم في هذا المكان القفر ، واستذكارا لهذه الأحداث اصطحبني الحاج الفيتوري السويحلي مع ثلة من أبناء المجاهدين من مصراتة في رحلة إلى منطقة السدادة ، وتم ذلك يوم 1983/3/18 م ، وكان محط رحالنا في واد نقد بالقرب من رأس السدادة ، وبه القلعة التي تطل على الوادي المذكور ، وبها معسكر قديم أقامه الطليان بعد رحيل المجاهدين من نفد ، وقريبا من قبور المجاهدين الذين سقطوا في تلك المعارك ومن بينهم قبر الشهيد سعدون و بجانبه المجاهد الطبولي من أرفلة ، المدفونين على ضفة الوادي الجنوبية ، قضينا يوما وليلة في هذه الأجواء العطرة التي ذكرتنا بجهاد الشعب الليبي ومعاناته في سبيل الحصول على استقلاله والتخلص من الاستعمار الايطالي البغيض .

كانت سانحة جميلة أن يتولى المجاهد الفيتوري السويحلي خلال هذه الرحلة رواية بعض الأحداث التي عاشها في هذه المنطقة باعتباره شاهد عيان ومشاركا في الجهاد ، ومن ذلك تفاصيل معركة المشرك التي استشهد فيها البطل سعدون السويحلي ، وذكرياته مع الشيخ الطاهر الزاوي الذي كان معهم هناك ، فقال : عندما سمع سعدون بدخول الطليان إلى مصراتة وسيطرتهم على أغلب المناطق ، قام بترحيل النساء والأطفال والشيوخ إلى منطقة السدادة للاستقرار فيها ، وبقي مع من كان معه من المجاهدين في منطقة ميمون استعدادا للمواجهة .

وصف معركة المشرك

تحرك المجاهدون للدفاع عن أنفسهم عند قدوم الطليان إليهم ، وكلما اقترب الجمعان زادت النيران إلى أن اشتبكا الفريقان معا ، وكان سعدون كعادته يتقدم المجاهدين ، وعند اشتداد المعركة أصيبت فرس سعدون برصاصة ، فخرت أرضا فنصحه بعض رجاله بالتقهقر للخلف ، غير إنه صاح فيهم ساخطا ، وأقسم على أن يخوض الحرب بنفسه حتى النصر أو الشهادة ، فقدم له حصان آخر فركبه ، وما أن استقر عليه حتى أصابته رصاصتان ، إحداهما في رأسه والأخرى في بطنه ، فخر صريعا ، وبعد ساعات انجلت المعركة ، وانسحب الطليان إلى مصراتة ، والمجاهدون إلى السدادة ، وكل فريق يعتقد أنه هزم في هذه المعركة من شدة هولها ولهيب أسلحتها ، وبقيت جثة سعدون في وادي

المشرك ، وتم إحضارها بعد ذلك على جمل في مسيرة يومين ، وهي المسافة بين السدادة ووادي المشرك ، وتم دفنه في السدادة ، وبقي المجاهدون في هذه المنطقة حتى تكونت مقبرة إلى جانب قبر سعدون .

مكث المجاهدون في واد نفد مدة عشرة شهور ، وكان معهم الشيخ الطاهر الزاوي وخلال هذه الفترة لم يتوقفوا عن مناوشة الطليان ومناصريهم في مصراتة ، حيث أغاروا عليهم عدة مرات ، وقبضوا على عدة خونة ممن باعوا نفسهم للمستعمر ، منهم شخص يدعى القريتلي ، وطبقا لأحكام الشرعية الإسلامية تمت محاكمتهم على هذه الخيانة لدينهم ووطنهم ، وكان الشيخ الطاهر الزاوي أحد أعضاء هذه المحكمة إضافة إلى الشيخ صفي الدين السنوسي قائد مجاهدي برقة ، وبحضور أحمد السويحلي الذي تولى القيادة بعد استشهاد سعدون ، وأضاف الحاج الفيتوري السويحلي أن الأسير القريتلي ، طلب منه أن يتوب ويعلن عن إسلامه حتى يتفادى عقوبة القتل ، ولكنه أصر على أنه طلياني ، أي كافر ، وتمت استتابته لمدة ثلاثة أيام ولما رفض ، نفذ فيه حكم الإعدام (3) .

الرحيل إلى مصر

كانت عودة الشيخ الطاهر الزاوي الأولى من مصر في أغسطس سنة 1919 م حيث كان يدرس هناك ، والتحق من فوره بركب الجهاد الوطني ، وذكر أن حكومة المجاهدين الوطنية شرفته بإشراكه في ثلاثة وفود ، هي : وفد الإصلاح بين الزنتان والبربر ، في نوفمبر سنة 1920 م ، ووفد الدعوة في يونيه سنة 1922 م إلى أجدابية لدعوة إدريس السنوسي لزيارة منطقة الجهاد في طرابلس ، فاعتذر ولم يجب الدعوة ، ووفد في يوليه سنة 1923 م – وكنا مقيمين في وادي نفد في أراضي أرفلة – لدعوة أولاد أبي سيف والزنتان للاشتراك في الجهاد ، وكانت حكومة المجاهدين في نفد ، وفي نهاية هذه المرحلة ، اضطر إلى مغادرة ليبيا ، حيث قال : وفي أواخر ديسمبر سنة 1923 داهمتنا الجيوش الإيطالية – في أراضي أرفلة ، في كثرة لم يمكننا الوقوف أمامها فجلونا عن أراضي أرفلة في أول يناير سنة 1924 م ، ومررنا بسرت – في طريق الهجرة إلى مصر مع عدة مئات من مجاهدي مصراتة ، وبهذه المعركة انتهت جميع أنواع المقاومة في طرابلس (4) .

يبدو أن بقاء الشيخ الطاهر الزاوي في وادي نفد واحتكاكه مع مجاهدي مصراتة كون علاقة وطيدة بينه وبين أهاليها وخاصة أسرة السويحلي القيادية ، ومن أهمهم السيد أحمد السويحلي رئيس حكومة مصراتة ، وإبراهيم بن رمضان السويحلي ، الذي تولى قيادة المجاهدين بعد وفاة المجاهد سعدون السويحلي ، إضافة إلى الحاج الفيتوري السويحلي ، وقد رافقهم مع بقية المجاهدين الذين هاجروا إلى مصر بعد انتهاء حركة الجهاد في المناطق الغربية بليبيا ، ولعل احتكاكه مع أهل مصراتة هو الذي جعله يشهد بمكانتهم في تاريخ ليبيا ، يقول في كتابه جهاد الأبطال : " لا شك أن مصراتة هي مركز الحركة الوطنية الطرابلسية ومنبع قوتها ، وقد أثبت التجارب وتقلبات الأحوال في طرابلس أن حياة الحركة الوطنية فيها رهن بوجود مصراتة في يد العرب ، وما خرجت مرة من أيديهم إلا وانقطع الجهاد من طرابلس . . . وهكذا نجد التاريخ الوطني في طرابلس لا يمر بمصراتة إلا وقف عندها موقف الإجلال والتعظيم " (5) هذه شهادة يعتز بها أهل مصراتة ، وقد أكدتها الأحداث التي مرت بها ليبيا خلال مرحلة التخلص من النظام الديكتاتوري السابق ، وأكدت العلاقة الجهادية بين مصراتة والزاوية .

استقر المجاهدون في مصر ، وكان من بينهم الشيخ الطاهر الزاوي والحاج الفيتوري السويحلي ، " وكانت طبيعة الهجرة تضطرهم إلى الأخذ بأسباب العيش ، مما كان له أسوأ الأثر في الحد من نشاطهم السياسي ، وقد أفسحت لهم مصر صدرها ووسعتهم ببرها ، وأباحت لهم التجول في طول البلاد وعرضها ، فانتشروا في صعيدها ابتداء من الجيزة إلى الفيوم ، والإسكندرية والعامرية ومراكز الصحراء الغربية إلى السلوم ، وسلكوا كل طريق شريف لطلب الرزق ، فاشتغلوا بالتجارة والزراعة وغيرها ، ولكنهم لم ينسوا قضيتهم الوطنية وهي استقلال بلادهم من المستعمر الإيطالي ، وحاولوا تشكيل لجنة أو جمعية للدفاع عن القضية ، ولكن النفوذ الإيطالي كان يحول دون تنفيذ هذه الرغبة ، وهذا لم يمنعهم من قيام جمعية في السر برئاسة السيد أحمد السويحلي ، بنشر ما يجري في ليبيا من فظائع الطليان في الجرائد المصرية ، وطبع منشورات ومذكرات وتوزيعها في البلاد العربية وبعض البلاد الأوربية ، والجمعيات والمنظمات العالمية لاطلاع الرأي العالمي على فظائع الاستعمار الايطالي " (6) .

النضال السياسي في المهجر

تمكن الشيخ الطاهر الزاوي مع رفقائه من المجاهدين المهاجرين من تأسيس اللجنة الطرابلسية بالقاهرة في أكتوبر سنة 1943 م ، وتم ذلك بمساعدة الأستاذ عبد الرحمن عزام

أمين عامة الجامعة العربية الذي كان يمدهم بما تحتاجه اللجنة من معونة ، أسندت رئاسة هذه اللجنة للسيد أحمد السويحلي ، ولم يلبث أن تنازل عنها فأسندت إلى صديقه الحميم الحاج الفيتوري السويحلي ، ومنذ تأسسي هذه اللجنة التي أخذت على عاتقها قيادة النضال السياسي لمجموعة كبيرة من المهاجرين الليبيين ، وأسندت إلى الشيخ الطاهر الزاوي وكالة هذه اللجنة ، وبقي قائما بشؤونها إلى انتهت مهمتها بعد استقلال ليبيا سنة 1951 م ، فكان هو المحرك الرئيس لها ، والعضو الفعال في نشاطها ، ورد في كتاب تاريخ الزاوية : " ولا أعدو الحقيقة إذا قلت : إن كل ما قامت به اللجنة من أنواع المطبوعات ، وعلى اختلاف مقاصدها ، أنا الذي كنت أكتبه ، وبعد أن أهيئه للطبع فإن كان عاما وقعته باسم [اللجنة الطرابلسية] وإن كان خاصا عرضته على صاحبه ليوقعه ، أو يأمرني بكتابة اسمه عليه ، وهو توفيق من الله أحمده عليه كثير الحمد " (7) .

انقسم الليبيون المقيمون في مصر إلى فريقين ، فريق كانت تمثله اللجنة الطرابلسية ، وهي الأكثرية المطلقة من المهاجرين الطرابلسيين بمصر والإسكندرية والصحراء الغربية إلى حدود السلوم ، أما الفريق الثاني الذي يضم الأمير إدريس السنوسي ومن معه ، وكان كل فريق يناوئ الآخر ، " فكانت للجنة الطرابلسية منشورات كثيرة ، واحتجاجات على أعمال المستعمر والمنافقين ، واستغاثات بملوك العرب ، وذوي الجاه من جميع المسلمين للأخذ بيد القضية الليبية وتأييد أنصارها ، وكانت تبين في منشوراتها سياستها نحو ليبيا ، ومواقف إدريس الهزيلة وسياسته الانفصالية ، وانحيازه إلى سياسة المستعمر " (8) وعندما تم تأسيس الجيش الليبي الذي تم إنشاؤه في مصر، ويعرف تاريخياً باسم الجيش السنوسي لطرابلس وبرقة ، لأنه تكون تحت إدريس السنوسي، وتذكر شواهد التاريخ وجود معارضة له من بعض أفراد الجاليات الليبية التي كانت تقيم بمصر، وكان المعارضون للجيش السنوسي ومن أنضم إليه ثلة من أبناء المجاهدين وبعض قادتهم، منهم الحاج الفيتوري السويحلي والشيخ الطاهر أحمد الزاوي، هؤلاء الذين أسسوا النادي الليبي الثقافي بالقاهرة، يؤيدهم الأستاذ عبد الرحمن عزام أول أمين للجامعة العربية (9) .

استمر عمل اللجنة الطرابلسية في النضال السياسي ، ونظرا لانشغال بعض أعضائها ، وآل أمرها إلى انتخاب هيئة تنفيذية مكونة من : الفيتوري عمر السويحلي رئيسا ، والطاهر الزاوي وكيلا ، وعمر الغويلي أمينا أول ، وأبو القاسم الباروني أمينا ثانيا ، وتولت الهيئة التنفيذية كل أعمال اللجنة ، والتوقيع على كتبها ومنشوراتها ومن أهم مبادئ اللجنة الطرابلسية : -

(1) اعتبار القطر الليبي وحدة لا تتجزأ ، من حدود مصر إلى حدود تونس ، ومن البحر الأبيض إلى حدود السودان .
(2) العمل على جعل السياسة الليبية جزءا من سياسة الجامعة العربية .
(3) المطالبة بالاستقلال التام الناجز ، والوحدة التي لا شرط فيها ولا قيد (10)

وبتشكيل الهيئة التنفيذية أصبح الشيخ الطاهر الزاوي والحاج الفيتوري السويحلي أهم قياديين في النضال السياسي للجالية الليبية في مصر ، ولذلك أخذا على عاتقهما قيادة العمل السياسي المناوئ لإدريس السنوسي ومن يؤيده ، وربما يعود الخلاف إلى أن هذا الأخير لا يرغب في وحدة ليبيا ، بل يرغب في استقلال برقة فقط بتشجيع من الانجليز الذي يؤيدونه في ذلك .

وحدة الدولة الليبية

كان هم اللجنة الطرابلسية ، هو وحدة ليبيا والمطالبة باستقلالها التام وانضمامها للجامعة العربية ، ولذلك كانت كل تحركاتها تهدف إلى تحقيق هذه المطالب التي اتخذتها شعارا لها ، وتنادي بها في كل مكاتباتها واللقاءات التي كانت تقوم بها مع بقية الهيئات الوطنية والسياسية والمنظمات الدولية ، ولعل من أهم ذلك التقرير الذي قدمته بشأن القضية الليبية ، وما يتصل بها من أعمال الانجليز في طرابلس وبرقة رفعته إلى جامعة الدول العربية والهيئات الإسلامية في شوال 1365هـ الموافق سبتمبر 1946 م ، بتوقيع أعضاء الهيئة التنفيذية الأربعة .

يتكون التقرير من مقدمة تاريخية ، وفقرات مشروحة تبين : أولا – الحالة الإدارية ، ثانيا – الحالة السياسية ، ثالثا – الحالة الاقتصادية ، رابعا – الحالة الأدبية ، خامسا – الجامعة العربية ، سادسا – إدريس السنوسي وسياسة الانجليز ، سابعا – التفريق في المعاملة بين برقة وطرابلس ، ثم خاتمة التقرير التي تضمنت ما اتفقت عليه الهيئات الوطنية الطرابلسية في ذلك الوقت وهي : الحزب الوطني ، والجبهة الوطنية المتحدة ، والكتلة الوطنية المتحدة ، من مطالب ، وهي : الاستقلال التام ، ووحدة البلاد ، والانضمام إلى الجامعة العربية ، وقد أخذت هذه الهيئات المبادئ الثلاثة من رغبات الشعب الليبي ،

فهو لا يقبل غير الاستقلال التام الذي لا يشوبه قيد ولا يقبل غير الوحدة التي لا تجزئة فيها ، ولا يقبل أن يكون اتصاله بالجامعة العربية محدودا بحد أو مشروطا بشرط ، كما تضمنت الخاتمة نصيحة من اللجنة الطرابلسية باختيار النظام الجمهوري للحكم ، وأن يتولى رئاسة الحكومة المقبلة من ضحى في سبيل الوطن بنفسه أو ماله ، وخلاصة بتقديم بعض التوصيات علاجا للحالة القائمة في طرابلس وبرقة (11) ولا يخفى على كل من طالع هذا التقرير أن الذي كتبه هو الشيخ الطاهر أحمد الزاوي ، يدل على ذلك ما ورد في المقدمة التاريخية ، والأسلوب الذي كان يكتب به مؤلفاته من حيث سلامة اللغة والدقة في التعبير واستعمال المصطلحات الأدبية والسياسية التي كانت متداولة حينذاك .

أصدرت اللجنة الطرابلسية في مصر ، ضمن جهودها الكبيرة ، ونضالها من أجل وحدة ليبيا **[الكتاب الأبيض في وحدة طرابلس وبرقة]** في إبريل سنة 1949 م وفيه مباحث كثيرة حول العديد من الحوادث التاريخية المهمة لكل من يريد معرفة ما دار في تلك الحقبة الزمنية التي عاشها المجاهدون في خارج ليبيا أثناء فترة الاستعمار الايطالي البغيض ، ولا شك أن الشيخ الطاهر الزاوي وراء هذه الكتاب التاريخي القيم ، وقد حفظه لنا طيلة سنين حتى تمكن من نشره سنة 1976 م ، فهو يذكر أن هذا الكتاب " ثوى في مرقده أكثر من خمس وعشرين سنة ، يحمل لليبيين نبذة من جهادهم في دار هجرتهم مصر " (12) .

والكتاب **– كما وصفه الشيخ الطاهر الزاوي رحمه الله –** " يضم مجموعة من النصوص تتصل بحلقة من حلقات القضية الليبية ، وهي الوحدة بين برقة وطرابلس ومواضيعه محصورة بهذه القضية ، وقد اهتمت اللجنة الطرابلسية منذ سنة 1940 بجمع نصوصه وما دار بين المسؤولين عن سياسة الوطن من مذكرات وكتب ، وما بذله حكامه وذوو الرأي فيه من جهود لجمع الكلمة في مواجهة السياسة الأجنبية ، وكان من أكبر الدواعي إلى طبعه بيان حقيقة ما شاع في الأوساط العربية أن هناك خلافا بين الطرابلسيين والسيد إدريس السنوسي بسبب الإمارة ، حتى كاد هذا الخلاف يؤدي إلى فصل عرى الوحدة بين برقة وطرابلس ، وحاول بعض من لا علم له بالحقيقة أن يلتمس الأعذار للسيد إدريس في رفضه الاتفاق مع الطرابلسيين على وحدة البلاد ودعوته إلى فصل برقة عن طرابلس " (13)

يشتمل الكتاب على فصول هي : الفصل الأول فيما يتعلق بالعمل للوحدة في طرابلس وبرقة ، وتضمن اتفاق الزويتينة ، المؤرخ في 25 أكتوبر 1925م ، مع ملاحقه ، واتفاق الرجمة ، والفصل الثاني فيما يتعلق بالعمل للوحدة مع مصر ، أما الفصل الثالث ، التدخل الانجليزي ، ثم الخاتمة التي تضمنت مطالب الشعب الليبي المعروفة ، ونظرا لأهمية هذه الوثائق ، فكرت اللجنة في وضعه خاصا بما يتعلق بالوحدة منذ سنة 1940 ، ورأت من الخير لإظهار الحقيقة ناصعة أن يشتمل على أكثر ما يتصل بهذا الموضوع من سنة 1916 م إلى فبراير 1949 م سواء منه ما وقع في أرض الوطن ، أو في أرض مصر ، حتى يتسنى لرجالات العرب والمشتغلين بالسياسة أن يتفهموا مواقف السيد إدريس من القضية الليبية عامة ووحدة طرابلس وبرقة خاصة (14) .

بعض سكان برقة يرفضون الانفصال

تضمن الكتاب الأبيض أيضا المساعي التي قام بها وفد طرابلس إلى برقة من أجل توحيد الصف ، وسافر لذلك أكثر من مرة ، وأجرى العديد من المفاوضات كانت آخرها يوم 18 يناير سنة 1947 م ، وتقدم الوفد بالمقترحات التالية لتكون محلا للاتفاق ، وهي : -

(1) التمسك بوحدة ليبيا بحدودها الطبيعية قبل الحرب العالمية الثانية ورفض أي محاولة ترمي إلى تقسيمها أو فصل أي جزء منها .
(2) الاستقلال التام لكل البلاد الليبية .
(3) الالتفاف حول سمو الأمير السيد محمد بن إدريس المهدي السنوسي والمناداة به أميرا على ليبيا بحكومة ديمقراطية دستورية نيابية .
(4) انضمام ليبيا بعد نيلها الاستقلال إلى جامعة الدول العربية كعضو من أعضائها ..
(5) تأليف هيئة مشتركة لتوحيد الجهود المتعلقة بمصالح الوطن تحت إشراف سمو الأمير .
(6) يلتزم الطرفان العمل على تحقيق المبادئ المشار إليها والدفاع عنها بكل الوسائل الممكنة ، وعدم قبول أي وضع لا يتفق معها .
(7) يجري العمل بهذه الاتفاقية بعد توقيعها من الطرفين وموافقة سمو الأمير عليها .

لم توافق اللجنة البرقاوية على بعض بنود هذه الاتفاقية ، ورغم المحاولات التي بذلت بشأن الوصول إلى اتفاق معها لكنها باءت بالفشل ، وهذه النتيجة لم ترض اللجنة

الطرابلسية في مصر ، كما أنها لم ترض جمعية عمر المختار في برقة وهي جمعية وطنية من ضمن أهدافها استقلال ليبيا التام ، ووحدة ليبيا بكامل ترابها الوطني ، والانضمام إلى الجامعة العربية ، لذلك نشرت بيانا في جريدتها الوطن ، جاء فيه : " جاءت طرابلس ممثلة في وفد جبهتها المتحدة إلى برقة لجمع الشمل المشتت ، وتركيز القوة المتفرقة والسير قدما إلى الهدف المجمع عليه ، والذي لا غاية سواه للأمة جمعاء ، وهو الاستقلال التام لليبيا موحدة وبدون تجزئة تحت لواء أميرها وانضمامها إلى جامعة الدول العربية . . . إلا أن لجنة برقة أصرت على أن تتضمن الاتفاقية بعض الكلمات التي لا تدل على الرغبة في الوحدة ، وفي نهاية بيانها قالت : بناء على ما تقدم فإن المركز العام لجمعية عمر المختار ببرقة يرى من واجبه الوطني أن يرفع صوته مستنكرا ومحتجا على تصرفات لجنة المفاوضات البرقاوية ، محملا إياها مسؤولية ما ستلده الأيام نتيجة لتلك التصرفات . . . " (15) .

الوقوف ضد النظام الفدرالي

استماتت اللجنة الطرابلسية في الدفاع عن وحدة ليبيا وأخذت عهدا على نفسها أن تقف ضد النظام الفدرالي الذي تطالب به برقة ويساندها في ذلك الاستعمار الانجليزي ، فكان من قدر الرجلين ، الحاج الفيتوري السويحلي رئيس اللجنة ، والشيخ الطاهر الزاوي وكيل اللجنة أن يتصدرا هذا المطلب ، ويكونا في مواجهة المطالبين بالنظام الذي لا يحبذه جل الليبيين ، وخاصة الكتل السياسية في طرابلس ، وبدأت الاستعدادات لترسيخ هذا النظام والقبول به والمناداة برئاسة الملك إدريس للدولة ، وبدأت تصريحات بعض الزعماء متناقضة بين من يرغب في النظام الفدرالي ومن لا يريده ، كل ذلك كان عقب صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ 21 نوفمبر 1949 بشان استقلال ليبيا في موعد لا يتجاوز أول يناير سنة 1952 م ، وأن يوضع لها دستور يبين فيه شكل نظام الحكم بواسطة ممثلي السكان في برقة وطرابلس وفزان يجتمعون ويتشاورون في هيئة جمعية وطنية .

شعر المجاهد أحمد السويحلي بهذا الحراك المساند للملك إدريس والراغب في النظام الفدرالي عن طريق المؤتمر الذي يتزعمه بشير السعداوي ، فرأى من خطورة الحال أن يكتب إلى رئيس اللجنة الطرابلسية بمصر يطلب منه القدوم لمداركة الحال ،

فأرسل له رسالة مؤرخة في 1950/3/26 م ، ومما جاء في نص الرسالة : بوصول هذا إليكم أقدموا سريعا ، والأحسن أن تقدموا جميعا لأن المسألة دخلت في دور كفاح ، وأغلب أعيان البلاد انضموا إليه باسم المؤتمر وكذلك مصراتة وزليطن وغيرهما ، وصار صاحب الأكثرية .

فما كان من الحاج الفيتوري السويحلي رئيس اللجنة إلا أن سافر إلى طرابلس في سبتمبر سنة 1950 ، ولحقه بعد ذلك الشيخ الطاهر الزاوي ، كل ذلك من أجل حث سكان طرابلس على المطالبة بالوحدة الاندماجية ، ومن نشاط اللجنة الطرابلسية أن ألقى وكيلها الشيخ الطاهر محاضرة في النادي الأدبي بطرابلس مساء يوم 12 نوفمبر 1950 م بين فيها رأي اللجنة فيما يجب أن يكون عليه نظام الحكم في طرابلس ، وما يترتب على النظام الفيدرالي من الضرر بالشعب الليبي ، وتقسيمه إلى مناطق نفوذ لا تعود عليه إلا بالضرر ، وما أشبه الليلة بالبارحة فها نحن نعيش مرحلة الخوف من الفدرالي كما لو عاد بنا الزمان إلى أكثر من نصف قرن مضى ، لذلك نستحضر شيخنا الجليل الذي نحتفي بذكراه ، ونستعيد كلماته التي قالها سنة 1950 م ليخاطبنا بها من جديد ولتتفضل على بركة الله : -

وهذه كلماته حرفيا [ولعلكم يا حضرات الإخوان ، أدركتم أننا وصلنا إلى نتيجة هي ثمرة ما بذلته أمتنا العزيزة من جهود دامت نحو أربعين سنة ، تحمل فيها شعبنا في سبيل هذه النتيجة ألوان العذاب ، ولم تنج منه ربات الخدور ولا ساكنات القصور ، وما زالت آثاره بادية في أجسامنا وفي ثقافتنا ، وفي جميع مقومات حياتنا ، إذن فمن العار علينا أن نفرط في هذه النتيجة وأن نبخل بشيء من جهودنا لتحقيقها والانتفاع بها إلى أبعد حدود الانتفاع . . . نريدها دولة موحدة ، واستقلال تام ، فالدولة يجب أن تكون نيابية شوروية ، ينتخبها الشعب ، وتستمد سلطتها من الشعب الموحد المندمج بعضه في بعض ، الذي لا أجزاء فيه ، ولا يقبل التقسيم ، وقد ربط بين أجزائه وطن واحد ، ودين واحد ، ولغة واحدة ، اتحدت أصوله ، واشتبكت فروعه ، بروابط عجزت حوادث الدهر أن تفصم واحدة منها ، فلنحافظ عليها أيها الأخوان . .. . إن ما بين طرابلس وبرقة وفزان من الارتباط مثل ما بين الرأس واليدين والرجلين من جسم الإنسان ، فإذا قيل إن ليبيا تتركب من طرابلس وبرقة وفزان ، فمعناه أن هذه الثلاثة أجزاء لهذا الكل ، ينعدم بانعدامها ويوجد بوجودها ، فإذا افترقت هذه الأجزاء انعدمت ليبيا لا محالة . . إذن فعلى كل من سكان برقة وطرابلس أن يتعاونوا على ما يجعل وحدتهما اندماجية ، وأن يمثلوها تمثيلا صحيحا في الرأي والشعب والحكومة ،وأن يسلكوا ما سلك آباؤهم من قبل حتى جعلوا منهم أسرة واحدة " (16) .

استمرت اللجنة الطرابلسية في نضالها ضد النظام الفدرالي المراد تطبيقه في ليبيا بعد استقلالها ، فأخذت تسابق الزمن ، وتواصل الكتابة إلى بعض زعماء ليبيا وإلى الجامعة العربية وبعض الهيئات والمنظمات الدولية ، وإلى ما قبيل إعلان الاستقلال ، ويبدو أن الجهد المبذول كان من رئيس اللجنة ووكيلها ، فنجد كتابا مفتوحا وجهه الحاج الفيتوري السويحلي بتاريخ 1950/3/26 م إلى صاحب السمو أمير برقة السيد محمد إدريس المهدي السنوسي ، وهو من إعداد وكيل اللجنة الشيخ الطاهر الزاوي ، ومما جاء فيه : -

" لم يبق في الوقت متسع للسكوت ولا للانتظار ، وقد وقف الوطن على الهاوية ، فإذا لم تمتد لإنقاذه أيدي جميع أبنائه فالكارثة واقعة لا محالة ، وما زال المستعمرون والمستر بلت وأنصار الفدرالي يحاولون إبطال قرار هيئة الأمم ليتمكنوا من تقسيم الوطن واستعباد أبنائه ، وقد أجمعت جميع الآراء في طرابلس وبرقة وفزان على أن أقوى ما يعتمد عليه المستعمرون وأنصارهم في تنفيذ أغراضهم الاستعمارية ، وسلب حرية الشعب ، هو سكوتكم على تصرفاتهم في ليبيا ، حتى أصبح الشعب مقتنعا بان سموكم من أنصار الفدرالي .. " وهكذا كان الخطاب صريحا شديد اللهجة ، وفي وقت حرج من تاريخ البلاد .

وجاء في الخطاب أيضا " يا صاحب السمو : لا يمكن للشعب أن يرضى بهذا التقسيم ، ولا بسلب إرادته ، ولا بالتحكم في مصيره ، فهو يريد تحقيق وحدته الاندماجية الكاملة ، ويريد حكومة منتخبة من برلمان منتخب انتخابا حرا ، على النسبة العددية لجميع أفراد الشعب ، يختار البرلمان اسمها ، ويختار رئيسها ، ونعتقد أنه لا يضيركم متى احتفظ لكم الشعب لكم بالرياسة . . . وترى اللجنة الطرابلسية أن الطرابلسيين ما زالوا إلى الآن يخطبون ود إخوانهم البرقاويين لتحقيق الوحدة الاندماجية فإذا أبي البرقاويون إلا هذا التقسيم ، كان للطرابلسيين كل العذر للاحتفاظ برأيهم ، ولن يقطعوا الأمل في تحقيق الوحدة ، هذه كلمة صريحة تتقدم بها اللجنة الطرابلسية إلى سموكم ، وتعتقد أن الأكثرية الساحقة من سكان ليبيا تود أن تخاطبكم بهذه الصراحة ، ولكن ظروفها لا تسمح بذلك " (17) .

العودة إلى الوطن

تم وضع دستور للبلاد ، وأعلن عن استقلال ليبيا في 25 ربيع الأول سنة 1371 هـ الموافق 24 ديسمبر1951 م ، كما كان مخططا له مملكة دستورية يتولاها الملك إدريس السنوسي ، وتحت نظام فدرالي مكون من ثلاث ولايات هي طرابلس وبرقة وفزان ، وبذلك انتهت مرحلة الجهاد بنيل الاستقلال التام ، وبقي المجاهدان الشيخ الطاهر الزاوي والحاج الفيتوري السويحلي في مصر ، ولكن الحنين إلى أرض الوطن المستقل كان حلمهما بعد التحرير ، غير أن رجوعهما لأرض الوطن لم يكن بالأمر السهل ، فهما كانا من أشد المناوئين للنظام الفدرالي الذي يرغب فيه إدريس السنوسي ومن والاه ، وبالتالي فإن السلطات لا تسمح لهما بالرجوع ، أو سوف يتعرضان للمضايقات ، لذلك بذلت مساعي من قبل مصطفى بن حليم رئيس الوزراء من أجل المصالحة بين الحاج الفيتوري السويحلي والملك إدريس السنوسي ، فسمح له بالعودة إلى ليبيا ، وتم تعيينه عضوا في مجلس الشيوخ .

أما الشيخ الطاهر الزاوي ، فلم تتح له الفرصة ، وعاملته الدولة آنذاك بغير ما كان يستحقه من تكريم وتبجيل ، وربما كان يعلم الملك إدريس بحقيقة كفاح الشيخ الطاهر الزاوي وأنه كان المحرك الرئيس للجنة الطرابلسية التي كانت ضد النظام الفدرالي وربما كانت أيضا ضد تولي إدريس حكم ليبيا بالكامل ، ولذلك كان موقف الحكومة الليبية من الشيخ موقفا صعبا ، يقول – رحمه الله – في كتابه تاريخ الزاوية : " بقيت في مصر ثلاثا وأربعين سنة ، من مايو سنة 1924 إلى مايو سنة 1967 ، وفي هذه الفترة أتيحت لي فيها زيارة وطني مرتين ، مرة في أكتوبر سنة 1950 زمن الإدارة البريطانية ، وفي أعقاب اعتراف هيئة الأمم المتحدة باستقلال ليبيا ، ومرة أخرى زمن الحكم الإدريسي ، من أكتوبر سنة 1964 إلى أكتوبر سنة 1965 ، وبعد السنة لم يسمح لي بالبقاء فرجعت إلى مصر ، وفي مايو سنة 1967 أذن لي بالزيارة في العهد الإدريسي ، وكان بواسطة السيد فتحي الخوجة جزاه الله خيرا ، وبواسطته أعطيت لي إقامة خاصة (عشر سنوات) وفي سبتمبر سنة 1969 أعطيت لي إقامة دائمة في وطني وردت علي جنسيتي الليبية ، وأسندت إلى وظيفة الإفتاء الليبية ، فأنا اليوم ليبي وجنسيتي ليبية ، في وطني ليبيا " (18) .

النهاية المشرفة

تولى الشيخ الطاهر الزاوي وظيفة مفتي الديار الليبية ، وسار فيها بما يرضي الله ورسوله ، فأصدر العديد من الفتاوى التي تخدم البلاد وتساند تطبيق الشريعة الإسلامية ، وأضحت دار الإفتاء في عهده ملاذا لكافة المواطنين الراغبين في السؤال عن أحكام عباداتهم ومعاملاتهم ، ولكن النظام الحاكم الذي عينه في هذه الوظيفة وأعاد إليه جنسيته ، انقلب عليه ، لأن مواقف الشيخ كانت صلبة في الحق ، متمسكة بشرع الله ، غير مداهنة ولا مؤيدة للسلطة ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتصدع بكل ما يأمر به الدين الحنيف ، فانتهى به الأمر إلى ترك هذه الوظيفة ، ولندع الأستاذ الدكتور الصادق عبد الرحمن الغرياني ، مفتى ليبيا الحالي يصف لنا ذلك بقوله : " فمنذ أزيد من ثلاثين عاما خرج في القرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، فجمعوا كيدهم وأتوا صفا ، وشنعوا في الصحف حينها يمن يمثلون العلم الشرعي في البلد ، وعلى رأسهم دار الإفتاء ومفتي ليبيا السابق ، المجاهد الشيخ الطاهر الزاوي ، رحمه الله تعالى ، حتى كتب كبيرهم يومها في صحيفته (الزحف الأخضر) : إنهم ، أي شيوخ العلم وعلى رأسهم الفتي ، لا يساوون كيس قمامة ملقى في الطريق ، لا لشيء إلا لآن المفتي ، رحمه الله تعالى ، كان صخرة في الحق لا تلين ، ولم لم يجد – رحمه الله – له من قومه ناصرا ، لأن الأفواه يومها مكممة ، وسياط العذاب تنزل بكل من ينبس بكلمة حق ، أو نصرة مظلوم ، لم يجد بدا من أن يلزم بيته ، فسكتوا عنه ، واكتفوا منه بذلك ،فعزل نفسه ، ولم يجرؤوا أن يعزلوه ، وبقي في بيته إلى أن مات رحمه الله " (19) .

كلمة حق قالها الشيخ العلامة الصادق عبد الرحمن الغرياني ، وهي شهادة قوية تبين مكانة الشيخ الطاهر أحمد الزاوي ، وفعلا لزم بيته ولم يعد يذهب إلى دار الإفتاء ، ولكنه كان يتزاور مع أهله وجيرانه ، ويواصل أصدقاءه في المناسبات ، وكثيرا ما رأيته مع صديق عمره الحاج الفيتوري السويحلي في طرابلس ، إلى أن توفاهما الأجل ، حيث انتقل الشيخ الطاهر الزاوي إلى رحمة ربه يوم الأربعاء 23 من جمادى الأولى عام 1406 هـ الموافق 5 من شهر مارس 1988 م ، ودفن في مسقط رأسه في قرية الحرشا بمدينة الزاوية ، فكانت له جنازة كبيرة وفاء من شعب ليبيا تجاه هذا المناضل المجاهد والعالم الجليل أما رفيقه الحاج الفيتوري السويحلي ، فقد توفاه الأجل في مدينة طرابلس في نوفمبر سنة 1994 م ، ودفن في مقبرة الصحابي الجليل سيدي منيذر بحضور كبير من أهله وجيرانه ومعارفه من كافة أنحاء ليبيا ، رحمهما الله رحمة واسعة وأسكنهما فسيح جناته ، فقد كانا مثالا يحتدى في الكفاح والجهاد من أجل الوطن .

الهوامش والإحالات .

(1) نفد : واد من أودية أرفلة ، يقع جنوبي بني وليد ، وجنوبي قلعة الشيخ ، وهو من روافد وادي سوفجين ،وامتداده من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ، ويندفع ماؤه عند السدادة ، معجم البلدان الليبية ، للشيخ الطاهر أحمد الزاوي ، ص 329 – 330 ، دار مكتبة الفكر ، الطبعة الأولى 1388 هـ / 1968 م ، طرابلس ، ليبيا .

(2) جهاد الأبطال في طرابلس الغرب ، للشيخ الطاهر أحمد الزاوي ، ص 480 وما بعدها ، دار الفتح للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، 1390 هـ 1970 م . بيروت .

(3) هذا ما كتبته في مذكراتي الخاصة بعد عودتي من الرحلة المذكورة ، وبعضه من الذاكرة .

(4) تاريخ الزاوية ، للشيخ الطاهر أحمد الزاوي ، كتب في شعبان سنة 1401 هـ / الموافق يونيه 1981 م مخطوط ، محفوظ لدى أسرة المؤلف .

(5) جهاد الأبطال ، المصدر السابق ، ص 472 – 473 .

(6) جهاد الليبيين في ديار الهجرة ، من سنة 1343 هـ / 1924 م ، إلى سنة 1372 هـ / 1952 م ، للشيخ الطاهر أحمد الزاوي ، ص 11 - 14 ، الطبعة الأولى ، جمادى الثانية 1396 هـ يونيو حزيران 1976 م ، دار الفرجاني ، طرابلس ليبيا ،

(7) تاريخ الزاوية ، المصدر السابق ، ص 113 – 114 .

(8) المصدر السابق ، ص 113 .

(9) تراجم ليبية ، د / جمعة محمود الزريقي ، الجزء الثالث ، ص 195 ، تحت الطبع .

(10) جهاد الليبيين في ديار الهجرة ، المصدر السابق ، ص 16 – 17 . جهاد الليبيين في ديار الهجرة ، المصدر السابق ، ص 41 – 75 .

(11) المصدر السابق ، ص 100 .

(12) المصدر السابق ، ص 101 ، وما بعدها .

(13) المصدر السابق ، ص 100 .

(14) المصدر السابق ، ص 101 ، وما بعدها .

(15) جمعية عمر المختار تأسست في بنغازي سنة 1943 م ، في بيان أصدرته للشعب الليبي بتاريخ 1947/1/24 م ، وثائق جمعية عمر المختار صفحة من تاريخ ليبيا ، محمد بشير المغيربي ، ص 25 ، الطبعة الأولى يناير 1993 م . مؤسسة دار الهلال .

(16) جهاد الليبيين في ديار الهجرة ، المصدر السابق ، 351 – 358 .

(17) المصدر السابق ، ص 407 – 410 .

(18) تاريخ الزاوية ، المصدر السابق ، ص 114 – 115 .

(19) مقال بعنوان ، ما أشبه الليلة بالبارحة ، والمستهدف دار الإفتاء ، للشيخ الصادق عبد الرحمن الغرياني ، نشر بموقع التناصح بشبكة المعلومات الدولية ، بتاريخ 8 ربيع الثاني 1433هـ / 1 مارس 2012 م .